مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)



قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

معالم في التربية والدعوة

مواعظ الإمام ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأمي، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَبَعد:

فهذه باقة أخرى من المواعظ والحكم، تأخذ مكانها في سلسلة «معالم في التربية والدعوة» لعلَم من أعلام المسلمين ذو خبرة واسعة في هذا الميدان. فقد كثر إنتاجه في هذا الباب وتعددت مؤلفاته. ويكفي أن نذكر منها:

كتاب طريق الهجرتين.

وكتاب مدارج السالكين.

وكتاب الداء والدواء.

وكتاب الفوائد.

وكتاب إغاثة اللهفان.

وغيرها...

وهو ـ في كتبه كلها ـ لم يفوت مناسبة تمر معه. يجد فيها مكاناً لبيان خطأ شائع فيحذر منه. أو بيان خير فيدعو إلى المسارعة إليه، إلا ويسجل ذلك، حتى ولو اضطره ذلك إلى استطراد يخرجه عن موضوعه. والذين تعاملوا مع كتبه يعرفون ذلك من أسلوبه ومنهجه.

ولعالِمنا ـ رحمه الله ـ أسلوبه المتميز بالرصانة والجمال، والمتميز أيضاً بالنَّفَس الطويل، إذ لا يكتفي بتسجيل الفكرة أو الموضوع، إلا بعد أن يشفعه بالدليل والحكمة والتعليل، مما يجعل الحصول على المواعظ القصيرة التي تتناسب مع موضوع هذه السلسلة أمراً يحتاج إلى البحث والتفتيش.. وهو ما يسَّر الله القيام به لتدوين هذه المواعظ.

وهي وإن كانت قليلة العدد فهي كبيرة الفائدة، عظيمة النفع لمن أراد الاستفادة والعمل.

والله المرجو أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجعل أعمالنا خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢ ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ — **كتبه**

٤/٦/ ٢٠٠٠م — صالح أحمد الشامي

ترجمة ابن القيِّم

هو الإمام المحقق الحافظ شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي، المعروف بـ«ابن قيم الجوزية» نسبة إلى المدرسة التي أنشأها يوسف بن عبد الرحمن الجوزي، حيث كان أبوه قيماً عليها، واشتهر باسم «قيم الجوزية».

ولد سنة (٦٩١هـ) في قرية زرع [ازرع] من قرى حوران، ثم انتقل إلى دمشق وتتلمذ لعلمائها.

ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية ملازمة تامة بعد عودته من مصر إلى دمشق سنة (٧١٢هـ) إلى أن توفي الشيخ سنة (٧٢٨هـ).

وقد أتيح له بهذه الملازمة استماع أراء الشيخ واجتهاداته، ولم يقتصر على إفادة العلم من شيخه، بل استفاد أيضاً تعلم طريقته في الاستدلال والمناقشة، وقد تأثر بأسلوبه في الكتابة وتحرير المسائل.

وأهم ما استفاد منه: دعوته إلى الاعتصام بكتاب الله عز وجل، والسنة الصحيحة، وفهمهما على طريقة السلف الصالح.

وقد أصابه ما أصاب شيخه من أذى، فقد اعتقل معه في قلعة دمشق، ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة الشيخ رحمه الله.

وقد استمر على محبة شيخه بعد وفاته، وتابع منهجه في سيرته وعلمه.

وقد كان ـ رحمه الله ـ صاحب عبادة وتهجد وطول صلاة، حتى قال ابن كثير في حقه:

«لا أعرف في هذا العالم، في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، رحمه الله تعالى».

وقد ذكر مترجموه من أمور عبادته وزهده وصدق لهجته الشيء الكثير.

أما مؤلفاته فكثيرة جداً، طبع منها أكثر من ثلاثين مؤلفاً.

توفي ـ رحمه الله ـ في شهر رجب سنة (٧٥١هـ) وصُلي عليه بجامع دمشق الكبير.

شهادات

ولاستكمال التصور عن شخصية ابن القيم، يحسن بنا أن نتوقف قليلاً، لنستمع إلى أقوال بعض العلماء فيه:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

«كان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف».

وقال العلامة ابن رجب الحنبلي:

«ما رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه. وهو ليس بمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله».

وقال القاضي برهان الدين الزرعي:

«ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه» والمراد في عصره.

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير:

«كان ملازماً للاشتغال ليلاً نهاراً، كثير الصلاة

والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد، لا يحسد ولا يحقد..».

وقد مر في ترجمته بعض شهادته.

وقال ابن العماد الحنبلي:

«هو المجتهد المطلق، المفسر، النحوي، الأصولي، المتكلم.. تفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله، والعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام وغير ذلك، وعالماً بعلم السلوك..».

مَحَاوِرُ الوَعْظِ عِنَدَ ابْنِ القَيِّم

محاور الوعظ مشتركة عند العلماء، كما سبق القول بذلك، إذ الغاية لديهم واحدة وهي الوصول إلى الإيمان والاستقامة، كما جاء ذلك في الحديث الشريف.

ولكنه بحسب الوضع الاجتماعي، ونوعية الأمراض التي تغلب عليه أو تنتابه، تكون مهمة العالم في تقديم العلاج المناسب مع مراعاة دفع الأخطر منها بحسب سلم الأولويات، ومن هنا تبرز اهتمامات العالم في التأكيد على بعض الأمور أكثر من غيرها..

وعندما نقف أمام مواعظ ابن القيم تبرز محاور كثيرة، منها:

١ ـ التزام الكتاب والسنة:

فهو يتألم من إعراض الناس عنهما، والتحاكم إلى غيرهما، واللجوء إلى القياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، الأمر الذي نتج عنه فساد في الفطرة، وظلمة في القلوب..

فلا بد من الرجوع إليهما، للرجوع إلى الطريق المستقيم، إذ المعرض عن السنة مبتدع ضال، شاء أم أبى.

ولا بد من ملازمة القرآن، إذ هو الشفاء لأمراض القلوب، المتمثلة في الشهوات والشبهات.

٢ ـ السعادة:

كثيراً ما تحدث عن السعادة والسعي في طلبها، إذ هي غاية ما يطلبه المسلم.

ويرى أنها تقوم على ثلاثة أركان: الشكر على النعم، والصبر عند الابتلاء، والاستغفار عند الذنب.

ولأمر ما جعل هذه المسألة مقدمة لكتابه «الوابل الصيب» الذي يتناول أمر الذكر والدعاء، وما ذاك إلا ليلفت النظر إليها، ويسلط الضوء عليها.

٣ ـ العناية بأمر القلوب:

يجعل ابن القيم جل اهتمامه موجهاً إلى القلب، فهو يتوقف للحديث عنه في كل مناسبة. بل إنه خصه بالجزء الأول من كتابه «مصايد الشيطان» حيث تحدث عن صحته ومرضه وعلاجه، بل إنه ألف كتاباً عنوانه «طب القلوب».

ومع ذلك، فإن للقلب في كل موضوع يتناوله

نصيباً، والمثال على ذلك، موضوع الطهارة، فالطهارة، عنده طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، فطهارة البدن بالماء، وطهارة القلب بالتوبة، فإذا حصلت الطهارتان صلح الإنسان للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته.

والمعاصي لها آثارها على القلب، فهي تؤدي إلى فساده وقسوته.

وكل العوارض التي تنتاب البدن تنتاب القلب، ومن هنا كانت مراقبته والعناية به أمراً لازماً، للمحافظة على سلامته.

٤ ـ المحافظة على الوقت:

فإضاعة الوقت أشد من الموت، لأن الموت يقطعك عن الحياة وأهلها وإضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة.

وقد تكلم العلماء في هذه القضية كثيراً، وتوقفوا عندها كثيراً، ذلك أن الوقت هو رأس مال الإنسان، الذي ينبغي ألا يبدده فيما لا فائدة فيه.

٥ ـ مراعاة الأولويات:

وفقه الأولويات من الأمور التي تأخذ مساحة واسعة من دائرة اهتمام الإمام ابن القيم. ابتداء من

محاسبة الإنسان نفسه، التي ينبغي أن تكون على الفرائض أولاً ثم على المناهي، ثم على الغفلة..

وانتهاء بأولويات الدعوة إلى الله، حيث ينبغي على الداعية ألا يأمر الناس بترك الدنيا، بل يأمرهم بترك الذنوب أولاً، لأن ترك الذنوب فريضة، وترك الدنيا فضيلة، والفريضة مقدمة على النافلة.

٦ ـ مراعاة التلازم بين العلم والعمل:

فلا نفع بالعلم بلا عمل، ولا نفع بالعمل بلا إخلاص.

وهذه قضية أساسية في سلوك المسلم، ينبغي عليه أن يضعها نصب عينيه إذ هي لازمة له في كل عمل يقوم به. حتى يكون مقبولاً عند الله تعالى.

٧ ـ إخلاص التوحيد لله تعالى:

فأنفع العمل: هو الذي تغيب فيه عن الناس بالإخلاص، وعن نفسك بشهود المنة، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق.

بل المنة لله تعالى أن جعلك قائماً بطاعته.

واذكر أن أساس كل خير: أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وبناء على ذلك: فالحسنات من نعمه تعالى، والسيئات من خذلانه.

فعليك أن تشكره على النعم، وتبتهل إليه أن يحول بينك وبين الخذلان.

٨ ـ التحذير من المشاقَّة:

فإذا كان الله ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادَّة. ولكن كن في الجانب الذي فيه الله ورسوله، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر.

وهذا أصل عظيم، بالتزامه تكون النجاة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

٩ ـ التمسك بالهدي النبوي:

حرص ابن القيم على دعوة الناس إلى التمسك بالهدي النبوي الشريف، والتزام ذلك. بحيث يكون ﷺ بالنسبة لكل مسلم: هو الإمام والمعلم والشيخ والقدوة.. وذلك بمطالعة سيرته ﷺ والتزام سنته.. حتى يكون المسلم معه ﷺ كواحد من أصحابه.

وبهذا تكون الصلة مباشرة بين المسلم وبين نبيه ﷺ.

ويضع ابن القيم في سبيل ترجمة ذلك عملياً، كتابه الفذ «زاد المعاد» الذي يطلق عليه أيضاً اسم «الهدي النبوي» ليضع القارئ فيه أمام أفعاله ﷺ

وأقواله، وباتباع ذلك يكون التأسي به ﷺ الذي أمر به القرآن الكريم.

ولذا فنحن لا نجد أنفسنا في هذا الكتاب أمام كتاب فقه يتعامل مع الفروض والسنن والواجبات والمكروهات والمبطلات، من حيث كونها مصطلحات فقهية، إنما أمام الفعل الذي فعله ﷺ، والقول الذي قاله.. أمام هديه ﷺ في كل أمور الحياة..

وهكذا وضع ابن القيم عملياً كيفية الاتصال المباشر به ﷺ عن طريق التزام هديه، وهذا المسلك من ابن القيم محاولة جادة في رد المسلمين إلى الأصول، والتزام منه بالتطبيق العملي لقوله ﷺ:

(تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ).

وهذا الخط ملازم لابن القيم في وعظه ونصحه وإرشاده..

تلك هي بعض محاور الوعظ عند ابن القيم، اكتفي بذكرها، وأترك للقارئ الكريم التعرف على محاور أخرى من خلال وقوفه على بعض مواعظه رحمه الله.

مَوَاعِظُ

الإمَامِ ابْنِ القَيِّمِ

سعادة العبد

قال أبو عبد الله:

الله سبحانه وتعالى المسؤول المرجو الإجابة: أن يتولاكم في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وأن يجعلكم ممن:

إذا أنعم الله عليه شكر.

وإذا ابتلي صبر.

وإذا أذنب استغفر.

فإن هذه الأمور الثلاثة هي عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً[1].

شروط الانتفاع بالقرآن

قال أبو عبد الله:

---

(١) هذه مقدمة الإمام لكتاب الوابل الصيب.

إذا أردت الانتفاع بالقرآن:

فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه.

وألق سمعك.

واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه.

فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾[1][2].

إضاعة الوقت

قال أبو عبد الله:

إضاعة الوقت أشد من الموت.

لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٧.

(٢) الفوائد، ص٥.

والموت يقطعك عن الحياة وأهلها[١].

شفاء القرآن

قال أبو عبد الله:

جماع أمراض القلب، هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين:

ففيه من البينات والبراهين القطعية، ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار[٢].

الإقرار بالتقصير

قال أبو عبد الله:

---

(١) الفوائد، ص٦٤.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٧٣ ـ ٧٥ تحقيق محمد عفيفي، المكتب الإسلامي.

طوبى لمن أنصف ربه فأقر له بالجهل في علمه.

والآفات في عمله.

والعيوب في نفسه.

والتفريط في حقه.

والظلم في معاملته.

فإن أخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله.

وإن عمل حسنة رآها من منَّته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنةٌ وصدقة ثانية، وإن ردَّها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به.

وإن عمل حسنة رآها من تخلِّيه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه، وذلك من عدله فيه.

فيرى في ذلك فقره إلى ربه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها فبمحض إحسانه وجوده وكرمه[1].

للعبد ستران

قال أبو عبد الله:

---

(١) الفوائد، ص٦٨.

للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس.

فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله، هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس[1].

باب الإفلاس

قال أبو عبد الله:

أقرب باب يدخل منه العبد على الله تعالى هو باب الإفلاس.

فلا يرى لنفسه حالاً، ولا مقاماً، ولا سبباً يتعلق به، ولا وسيلة منه يمنُّ بها.

بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف والإفلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل.

فلا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى[2].

منازل السائرين

قال أبو عبد الله:

---

(١) الفوائد، ص٦٤.

(٢) الوابل الصيب، ص٢٣.

أول منازل القوم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1].

وأوسطها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾[2].

وآخرها: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ﴾[3][4].

النجاة من النار بعفوه تعالى

قال أبو عبد الله:

قال غير واحد من السلف:

ينجون من النار بعفو الله ومغفرته.

ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته.

ويتقاسمون المنازل بأعمالهم[5].

رياض الجنة

قال أبو عبد الله:

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤١، ٤٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٤.

(٤) الفوائد، ص٧٠.

(٥) مفتاح دار السعادة ١/١١٩ طبعة دار ابن عفان.

حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا) قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: (حِلَق الذكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حِلَق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم)[1].

قال عطاء: مجالس الذكر، مجالس الحلال والحرام، كيف يشتري ويبيع، ويصوم ويصلي، ويتصدق، وينكح ويطلق، ويحج[2].

قواعد الدين

قال أبو عبد الله:

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام:

- صبر على الأوامر والطاعات، حتى يؤديها.
- وصبر على المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها.
- وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

قال الشيخ عبد القادر:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٠).

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/٣٨٦.

لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه.

ومرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث:

- فعل المأمور.
- وترك المحظور.
- والصبر على المقدور[1].

لا تذمّ الدنيا

قال أبو عبد الله:

الدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار.

ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة، والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق.

وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها، ومنها زاد

---

(١) عدة الصابرين، طبعة دار الكتاب العربي، ص٤٦، ٤٧.

الجنة، وفيها اكتسبت النفوس الإيمان، ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته.

وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة، إنما زرعوه فيها. وكفى بها مدحاً وفضلاً.

لأولياء الله فيها من قرة العيون، وسرور القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم: بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته، والتوكل عليه والإنابة إليه، والأنس به..

وفيها كلامه ووحيه وهداه، وروحه الذي ألقاه من أمره.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

الدنيا، دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم.

فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه. فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية.

فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها، ونعت نفسها وأهلها؟!

ذمها قوم غداة الندامة.

وحمدها آخرون: ذكرتهم فذكروا، ووعظتهم فاتعظوا[1].

باعث الهوى وأثره

قال أبو عبد الله:

الإنسان إذا غلبَ صبرُه باعثَ الهوى والشهوة، التحق بالملائكة.

وإن غلب باعثُ الهوى والشهوة صبرَه، التحق بالشياطين.

وإن غلب باعثُ طبعه من الأكل والشرب والجماع صبرَه، التحق بالبهائم[2].

طهارتان

قال أبو عبد الله:

جعل الله سبحانه بحكمته الدخول عليه موقوفاً على الطهارة:

---

(١) عدة الصابرين، طبعة دار الكتاب العربي، ص٢١٣، ٢١٤.
(٢) المصدر قبله، ص٣٩.

فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر.

وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيب طاهر.

فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب.

ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقب وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين[1].

فطهارة القلب بالتوبة.

وطهارة البدن بالماء.

فلما اجتمع له الطهران، صلح للدخول على الله والوقوف بين يديه ومناجاته[2].

آثار المعاصي

قال أبو عبد الله:

قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونَفْرَة الخلق،

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٥)، وابن ماجه (٤٧٠).

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٩٢.

والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب.

ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر.

والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت.

وطول الهمّ والغم، وضنك العيش، وكسف البال..

تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله، كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار[1].

تلازم

قال أبو عبد الله:

لو نفع العلم بلا عمل، لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب.

ولو نفع العمل بلا إخلاص، لما ذم المنافقين.

وقال:

---

(١) الفوائد، ص٦٧.

من لم ينتفع بعينه، لم ينتفع بأذنه[1].

أكمل الخلق

قال أبو عبد الله:

أكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهوداً لفقره، وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعائه ﷺ:

(اللهم أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك[2])[3].

الشهوات

قال أبو عبد الله:

شهوات الدنيا كـ«لعب الخيال»[4] ونظر الجاهل مقصور على الظاهر، فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر[5].

---

(١) الفوائد، ص٦٤، ٦٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، المسند ٥/ ٤٢.

(٣) تقريب طريق الهجرتين إعداد صالح الشامي، المكتب الإسلامي ص٧٨.

(٤) هو شبيه بمسرح الدمى.

(٥) الفوائد، ص٨٧.

وقال:

كيف يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟[1]

الإعراض عن الكتاب والسنة

قال أبو عبد الله:

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرتهم. وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم.

وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتى ربا فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكراً[2].

محبطات الأعمال

قال أبو عبد الله:

محبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر.

---

(١) الفوائد، ص٦٥.

(٢) الفوائد، ص٨٨.

وليس الشأن في العمل، وإنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه.

فالرياء ـ وإن دق ـ محبط للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تحصر.

وكون العمل غير مقيد باتباع السنة أيضاً، موجب لكونه باطلاً.

والمنّ به على الله تعالى بقلبه مفسد له.

وكذلك المنّ بالصدقة والمعروف، والبر والإحسان والصلة مفسد لها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[1].

وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات[2].

تقوى الله وحسن الخلق

قال أبو عبد الله:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(٢) الوابل الصيب، ص٣١.

جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق[1]:

لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه.

وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه.

فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته[2].

توالي القرون على الدنيا

قال أبو عبد الله:

عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها، وتعرضت له، فدفع في صدرها باليدين، وردها على عقبيها.

ثم عرضت بعده على أصحابه، وتعرضت لهم، فمنهم من سلك سبيله، ودفعها عنه، وهم قليل، ومنهم من استعرضها وقال: ما فيك؟ قالت: فيَّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام. فقالوا: هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه، فأخذوا حلالها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦).

(٢) الفوائد، ص١٠٠.

ثم تعرضت لمن بعدهم، فطلبوا حلالها فلم يجدوه، فطلبوا مكروهها وشبهها، فقالت: قد أخذه من قبلكم، فقالوا: هاتي حرامك، فأخذوه.

فطلبه من بعدهم، فقالت: هو في أيدي الظلمة قد استأثروا به عليكم، فتحملوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه.

هذا وكلهم ضيوف، وما بأيديهم عارية.

فالضيف مرتحل والعارية مؤداة[1].

مراتب المحرمات

قال أبو عبد الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

فرتب المحرمات أربع مراتب:

---

(١) عدة الصابرين، ص٢٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

- وبدأ بأسهلها، وهو الفواحش.

- ثم ثنى بما هو أشد تحريماً منه، وهو الإثم والظلم.

- ثم ثلث بما هو أعظم تحريماً منهما، وهو الشرك به سبحانه.

- ثم ربَّع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله، وهو القول عليه بلا علم.

وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه[١].

التشهد عند الموت

قال أبو عبد الله:

لشهادة «أن لا إلّه إلا الله» عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها. لأنها شهادة من عبد موقن بها، عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها.

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٤٦ طبعة دار الكتاب العربي.

واسْتَخْذَت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه.

فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه.

فوجهَ العبدُ وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلانيته، فقال: «لا إله إلا الله» مخلصاً من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه.

قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة، فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره.

كانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله.

فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسرها علانيتها.

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة، لاستوحش من الدنيا وأهلها، وفرَّ إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه.

لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الدنيا وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ، والالتفات إلى غير الله.

فلو تجردت كتجردها عند الموت، لكان لها نبأ آخر، وعيش آخر سوى عيشها البهيمي[1].

الرزق والأجل

قال أبو عبد الله:

فرغ خاطرك للهمِّ بما أمرت به، ولا تشغله بما ضُمِنَ لك.

فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقياً، كان الرزق آتياً.

وإذ سدَّ عليك بحكمته طريقاً من طرقه، فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه[2].

---

(١) الفوائد، ص١٠١.

(٢) الفوائد، ص١٠٣.

أكمل مراتب العبودية

قال أبو عبد الله:

إن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره، واستعمالاً للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد.

فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية[١].

عندما يكون المال في اليد

قال أبو عبد الله:

وجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره، إنما يقدح في فقره رؤيته لملكته.

فمن عوفي من رؤية الملكة لم تلوث باطنه أوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله.

فهذا لو كان بيده أمثال جبال الدنيا لم يضره[٢].

---

(١) الوابل الصيب، ص٤٠.

(٢) تقريب طريق الهجرتين: ص٨٢.

الولد يتبع أمه

قال أبو عبد الله:

كن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع أمه[1].

الشغل بالنفس

قال أبو عبد الله:

من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس.

ومن عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.

وقال:

أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه.

بل أخسر منه، من اشتغل عن نفسه بالناس[2].

خطوتان

قال أبو عبد الله:

---

(١) الفوائد، ص٩٣.

(٢) الفوائد، ص١٠٤، ١٠٥.

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين:

خطوة عن نفسه.

وخطوة عن الخلق.

فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس.

ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله.

فلا يلتفت إلا إلى من دلَّه على الله وعلى الطريق الموصلة إليه[1].

الالتفات في الصلاة

قال أبو عبد الله:

الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره.

والثاني: التفات البصر.

وكلاهما منهي عنه.

ولا يزال الله مقبلاً على عبده، ما دام العبد مقبلاً

---

(١) الفوائد، ص١٠٠.

على صلاته، فإذا التفت بقلبه أو بصره، أعرض الله تعالى عنه[1].

وقد سئل ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[2].

الاجتماع وأسباب الرحمة

قال أبو عبد الله:

يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة. ولا سيما إذا اجتمعت الهمم وتساعدت القلوب، وعظم الجمع، كجمع عرفة، وجمع الاستسقاء، وجمع أهل الجمعة.

فإن اجتماع الهمم والأنفاس، أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخبر ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها.

بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها[3].

---

(١) الوابل الصيب، ص٥٤.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١).

(٣) عدة الصابرين، ص٨٤.

حتى زرتم المقابر

قال أبو عبد الله:

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

فأخبر - سبحانه - أن التكاثر شغل أهل الدنيا، وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر.

وجعل الغاية زيارة المقابر، دون الموت، إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها، غير مستقرين فيها. ودار القرار هي الجنة أو النار[١].

النفس المطمئنة

قال أبو عبد الله:

النفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتقات إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة.

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار.

---

(١) عدة الصابرين، ص٢٢٧.

فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته، وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه.

فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره.

واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره.

واطمأنت إلى لقائه ووعده.

واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته.

واطمأنت إلى الرضى به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

واطمأنت إلى قضائه وقدره.

واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِهِ وضمانه.

فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين[١].

من أبواب النار

قال أبو عبد الله:

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب:
باب شبهة أورثت شكاً في دين الله.
وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته.
وباب غضب أورث العدوان على خلقه[1].

أنفع العمل

قال أبو عبد الله:

أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص.
وعن نفسك بشهود المنَّة، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق[2].

الصلاة المقبولة

قال أبو عبد الله:

الصلاة المقبولة، والعمل المقبول، أن يصلي العبد صلاة تليق بربه عز وجل، فإذا كانت صلاة تصلح لربه تبارك وتعالى، وتليق به، كانت مقبولة[3].

---

(١) الفوائد ص١٠٥.
(٢) الفوائد ص١٠٥.
(٣) الوابل الصيب، ص٥٨.

هجر القرآن

قال أبو عبد الله:

هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

الرابع: هجر تدبُّره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

وكل هذا داخل في قوله:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٠.

وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[1].

الصوم

قال أبو عبد الله:

الصوم: هو صوم الجوارح عن الآثام.

وصوم البطن عن الشراب والطعام.

فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده، فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته، فتصيّره بمنزلة من لم يصم[2].

شكوى الجاهل

قال أبو عبد الله:

الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه.

ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال: يا هذا، وّالله مازدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك.

والعارف: إنما يشكو إلى الله وحده.

---

(١) الفوائد، ص١٥٦.

(٢) الوابل الصيب، ص٦٨.

وأعرف العارفين: من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس[1].

أساس كل خير

قال أبو عبد الله:

أساس كل خير: أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

فتيقن حينئذ:

أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها. ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

وقد أجمع العارفون على:

أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد.

وكل شر فأصله خذلانه للعبد.

وأجمعوا:

أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك.

وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك[2].

---

(١) الفوائد، ص١٦٥.

(٢) الفوائد، ص١٨١.

غنى النفس

قال أبو عبد الله:

غنى النفس استقامتها على الأمر الديني، الذي يحبه الله ويرضاه. وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويبغضها.

وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك، تعظيماً لله سبحانه وأمره، وإيماناً به، واحتساباً لثوابه، وخشية من عقابه.

لا طلباً لتعظيم المخلوقين له ومدحهم، وهرباً من ذمهم وازدرائهم، وطلباً للجاه والمنزلة عندهم. فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد منه[١].

العوارض التي تنتاب القلب

قال أبو عبد الله:

القلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاؤه في التوبة والحمية.

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص٩٨.

ويصدأ، كما تصدأ المرآة، وجلاؤه بالذكر.

ويغرى، كما يعرى الجسم، وزينته التقوى.

ويجوع ويظمأ، كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة[١].

الأمور بخواتيمها

قال أبو عبد الله:

أغبى الناس من ضل في آخر سفره، وقد قارب المنزل.

وقال:

من أحدث قبل السلام، بطل ما مضى من صلاته.

ومن أفطر قبل غروب الشمس، ذهب صيامه ضائعاً.

ومن أساء في آخر عمره، لقى ربه بذلك الوجه[٢].

---

(١) الفوائد ص١٨٣.

(٢) الفوائد، ص١١٧ ـ ٢٠٠.

النية ومعترك الشيطان

قال أبو عبد الله:

النية: هي القصد والعزم على فعل الشيء.

ومحلها القلب، ولا تعلق لها باللسان أصلاً.

ولذلك لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه في النية لفظ بحال، ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك.

وهذه العبارات التي أحدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة، قد جعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس، يحبسهم عندها ويعذبهم فيها، ويوقعهم في طلب تصحيحها، فترى أحدهم يكررها، ويجهد نفسه في التلفظ بها، وليست من الصلاة في شيء.

وإنما النية قصد فعل الشيء.

فمن قعد ليتوضأ، فقد نوى الوضوء.

ومن قام ليصلي، فقد نوى الصلاة[1].

دواوين الظلم

قال أبو عبد الله:

---

(١) إغاثة اللهفان، ١/ ٢١٤.

للظلم عند الله عز وجل ـ يوم القيامة ـ دواوين ثلاثة:

ديوان: لا يغفر الله منه شيئاً، وهو الشرك به، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وديوان: لا يترك الله تعالى منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم بعضا، فإن الله تعالى يستوفيه كله.

وديوان: لا يعبأ الله به شيئاً، وهو ظلم العبد نفسه، بينه وبين ربه عز وجل.

فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوا، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار. بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد.

وديوان المظالم، لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها[١].

موقفان بين يدي الله

قال أبو عبد الله:

للعبد بين يدي الله موقفان:

---

(١) الوابل الصيب، ص٥٠.

موقف بين يديه في الصلاة.

وموقف بين يديه يوم لقائه.

فمن قام بحق الموقف الأول، هوَّن عليه الموقف الآخر.

ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه، شدد عليه ذلك الموقف[1].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

المعرض عن التوحيد

قال أبو عبد الله:

المعرض عن التوحيد، مشرك شاء أم أبى.

والمعرض عن السنَّة، مبتدع ضال، شاء أم أبى.

والمعرض عن محبة الله وذكره، عبدُ الصُّوَر شاء أم أبى[3].

---

(١) الفوائد، ص٣٤٨.

(٢) سورة الإنسان، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) إغاثة اللهفان، ١/ ٣٣٢.

تدبر القرآن

قال أبو عبد الله:

القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته.

وأنت إذا تدبرت القرآن، أشهدك:

ملكاً قيوماً ـ فوق سماواته ـ على عرشه، يدبر أمر عباده:

ـ يأمرُ وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب.

ـ ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع.

ـ ويعز ويذل، ويخفض ويرفع.

ـ يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية.

ـ فعَّال لما يريد.

ـ موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب.

ـ لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

ـ ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه. ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع[1].

لص الهوى

قال أبو عبد الله:

يدخل عليك لص الهوى، وأنت في زاوية التعبد، فلا يرى منك طرداً له، فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد[2].

حقيقة التوكل

قال أبو عبد الله:

سرُّ التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وحده.

ـ فلا يضره مباشرة الأسباب، مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها.

ـ كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به.

---

(١) الفوائد، ص١٢٨ ـ ١٣١.

(٢) الفوائد، ص١٢٧.

ـ فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء آخر[1].

حقيقة الحياة الدنيا

قال أبو عبد الله:

العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه. ومدة السفر هي عمره الذي كتب له.

فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه.

ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة، حتى ينتهي السفر.

فالكيس الفطن، هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه.

فيهتم بقطعها سالماً غانماً،

فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه.

---

(١) الفوائد، ص١٦٤.

ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه، ويمتد أمله، ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل.

بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة. فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته.

فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها، هان عليه العمل.

فطوعت له نفسه الانقياد إلى التزود.

فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره، استقبلها كذلك.

فلا يزال هذا دأبه، حتى يطوي مراحل عمره كلها.

فيحمد سعيه، ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته.

فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذ يحمد سراه، وينجاب عنه كراه.

فما أحسن ما يستقبل يومه، وقد لاح صباحه، واستبان فلاحه[١].

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص٣١٠.

المبالاة بالناس

قال أبو عبد الله:

الذي يحسم مادة المبالاة بالناس: شهود الحقيقة.

وهو رؤية الأشياء كلها من الله، وبالله، وفي قبضته، وتحت قهره وسلطانه. لا يتحرك منها شيء إلا بحوله وقوته، ولا ينفع ولا يضر إلا بإذنه ومشيئته.

فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود[1].

طريقة الدعوة إلى الله

قال أبو عبد الله:

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب، مع إقامتهم على دنياهم.

فترك الدنيا فضيلة.

وترك الذنوب فريضة.

فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة؟!.

---

(١) مدارج السالكين، ٢/ ٣١.

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم، فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا، فتشق عليهم الإجابة[١].

ثلاثة حصون

قال أبو عبد الله:

قال أبو خلاد المصري:

من دخل في الإسلام، دخل في حصن.

ومن دخل المسجد، فقد دخل في حصنين.

ومن جلس في حلقة يذكر الله عز وجل فيها، فقد دخل في ثلاثة حصون[٢].

شجرة الحياة

قال أبو عبد الله.

السَّنة شجرة.

والشهور فروعها.

---

(١) الفوائد، ص٢٩٩.

(٢) الوابل الصيب، ص١٧٧.

والأيام أغصانها.

والساعات أوراقها.

والأنفاس ثمرها.

فمن كانت أنفاسه في طاعة، فثمرة شجرته طيبة.

ومن كانت في معصية، فثمرته حنظل.

وإنما يكون الجذاذ يوم المعاد، فعند الجذاذ يتبين حلو الثمار من مرها[1].

زيارة القبور

قال أبو عبد الله:

زيارة الموحد، لها ثلاثة مقاصد:

أحدها: تذكير الآخرة، والاعتبار والاتعاظ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: (زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة)[2].

الثاني: الإحسان إلى الميت، وأن لا يطول عهده به، فيهجره، ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه.

---

(١) الفوائد، ص٢٩٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٧١).

فإذا زار الحي فرح بزيارته وسرَّ بذلك، فالميت أولى، لأنه قد صار في دار هجر أهلها إخوانهم وأهليهم ومعارفهم.

فإذا زاره وأهدى إليه هدية: من دعاء، أو صدقة، أو أهدى قربة، ازداد بذلك سروره وفرحه. كما يسر الحي بمن يزوره، ويهدي له.

ولهذا شرع النبي ﷺ للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية، فقط.

ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعو بهم، ولا يصلي عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عندما شرعه الرسول ﷺ فيحسن إلى نفسه وإلى المزور[1].

أرض الفطرة

قال أبو عبد الله:

أرض الفطرة رحبة، قابلة لما يغرس فيها:

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٣٧.

فإن غرست شجرة الإيمان والتقوى، أورثت حلاوة الأبد.

وإن غرست شجرة الجهل والهوى، فكل الثمر مر[1].

الأشياء الضائعة

قال أبو عبد الله:

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها:

- علم لا يعمل به.
- وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء.
- ومال لا ينفق منه، فلا يستمتع به جامعه في الدنيا، ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة.
- وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به.
- وبدن معطل عن طاعته وخدمته.
- ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره.

---

(١) الفوائد، ص٧٠.

- ووقت معطل عن استدراك فارط، أو اغتنام برّ وقربة.

- وفكر يجول فيما لا ينفع.

- وخدمة من لا تقربك إلى الله خدمته، ولا تعود عليك بصلاح دنياك.

- وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأعظم هذه الإضاعات، إضاعتان هما أصل كل إضاعة:

- إضاعة القلب.

- وإضاعة الوقت.

فإضاعة القلب في إيثار الدنيا على الآخرة.

وإضاعة الوقت من طول الأمل.

فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل[1].

---

(١) الفوائد، ص٢٠٥، ٢٠٦.

أصول الخطايا

قال أبو عبد الله:

أصول الخطايا كلها ثلاثة:

- الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.
- والحرص؛ وهو الذي أخرج آدم من الجنة.
- الحسد: وهو الذي جرَّأ أحد ابني آدم على أخيه.

فمن وُقي شر هذه الثلاثة فقد وقي الشر:

فالكفر من الكبر.

والمعاصي من الحرص.

والبغي والظلم من الحسد[1].

أولويات محاسبة النفس

قال أبو عبد الله:

جماع ذلك: أن يحاسب نفسه:

- أولاً: على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح.

---

(١) الفوائد، ص١٠٥.

ـ ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية.

ـ ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله.

ـ ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته.

ويعلم أنه لا بد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان:

ديوان لمن فعلته؟

[وديوان] كيف فعلته؟.

فالأول: سؤال عن الإخلاص.

الثاني: سؤال عن المتابعة[1].

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٣٦، والمراد بالمتابعة: متابعة الرسول ﷺ في ذلك الفعل.

(٢) سورة الحجر، الآيتان ٩٢، ٩٣.

علماء أم قطاع طرق!!

قال أبو عبد الله:

علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم.

فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقاً، كانوا أول المستجيبين له.

فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق[1].

أنواع الفقر

قال أبو عبد الله:

الفقر فقران:

الأول: فقر اضطراري[2]، وهو فقر عام، لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً

---

(١) الفوائد، ص١١٢.

(٢) المراد به كما بينه المؤلف: هو أن الله أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، لا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً. فكان فقره في تلك الحال أمراً محسوساً لكل أحد.

ولا ذماً، ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً.

والثاني: فقر اختياري، وهو نتيجة لعلمين شريفين:

- **أحدهما:** معرفة العبد بربه.
- **والثاني:** معرفته بنفسه.

فمتى حصلت له هاتان المعرفتان، أنتجتا فقراً هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق، عرف نفسه بالفقر المطلق(١).

الاستغناء بالله

قال أبو عبد الله:

الاستغناء بالله، هو عين الفقر إليه.

وهما عبارتان عن معنى واحد.

لأن كمال الغنى به هو كمال عبوديته، وحقيقة

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص٧٦.

العبودية كمال الافتقار إليه من كل وجه، وهذا الافتقار هو عين الغنى به.

فليس هنا شيئان يطلب تفضيل أحدهما على الآخر[1].

الإخلاص

قال أبو عبدِ الله:

الإخلاص هو:

ما لا يعلمه ملك فيكتبه.

ولا عدو فيفسده.

ولا يعجب به صاحبه فيبطله[2].

الإيمان والعلم

قال أبو عبد الله:

أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة:

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص١١٠.

(٢) الفوائد، ص١٨٤.

هو العلم والإيمان.

ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية[2].

حقيقة الإيمان

الإيمان: حقيقة مركبة من:

- معرفة ما جاء به الرسول ﷺ.
- والتصديق به عقدا[3].
- والإقرار به نطقاً.
- والانقياد له محبة وخضوعاً.
- والعمل به باطناً وظاهراً.
- والدعوة إليه بحسب الإمكان.

وكماله: في الحب في الله والبغض في الله.

---

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٢) الفوائد ص١٩١.

(٣) أي اعتقاداً.

والعطاء لله والمنع لله. والطريق إليه:

- تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً.

- وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله ﷺ[1].

المواساة

قال أبو عبد الله:

المواساة للمؤمنين أنواع:

- مواساة بالمال.

- ومواساة بالجاه.

- ومواساة بالبدن والخدمة.

- ومواساة بالنصيحة والإرشاد.

- ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم.

- ومواساة بالتوجع لهم.

وعلى قدر الإيمان تكون هذه المواساة. فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوي قويت.

---

(١) الفوائد، ص١٩٦.

ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد ـ وقد تجرد ـ وهو ينتقض فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟

فقال: ذكرت الفقراء وبردهم، وليس لي ما أواسيهم، فأحببت أن أواسيهم في بردهم[1].

أفضل الذكر

قال أبو عبد الله:

أفضل الذكر وأنفعه:

- ما واطأ فيه القلب اللسان.
- وكان من الأذكار النبوية.
- وشهد الذاكر معانيه ومقاصده[2].

ضيوف

قال أبو عبد الله:

مثل الدنيا، مثل رجل هيأ داراً وزينها، ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناس إليها.

فكلما دخل داخل، أجلسه على فراش وثير، وقدم إليه طبقاً عليه لحم، ووضع بين يديه أوانٍ مفتخرة، فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخدمه عبيده ومماليكه.

---

(١) الفوائد، ص٣٠٣.

(٢) الفوائد، ص٣٣٥.

فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده، فاستمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه في الدار، ولم يعلق قلبه بها، ولا حدَّث نفسه بتملكها، بل اعتمد[1] مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف. يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدم له، ولا يسأل عما وراء ذلك، اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه.

فدخل الدار كريماً، وتمتع فيها كريماً، وفارقها كريماً، وربُّ الدار غير ذام له.

وأما الأحمق، فحدث نفسه بسكنى الدار، وحَوْزِ تلك الآلات إلى ملكه، وتصرفه فيها بحسب شهوته وإرادته. فتخير المجلس لنفسه، وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان في الدار يخبؤها فيه، وكلما قدم إليه ربها شيئاً أو آلة حدَّث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف.

وربُّ الدار يشاهد ما يصنع، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره، حتى إذا ظن أنه استبد بتلك الآلات، وملك الدار، وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك

---

(١) أي تصرف مع صاحب الدار تصرف الضيف.

الحقيقي، واستوطنها واتخذها داراً له، أرسل إليه مالكها عبيده، فأخرجوه منها إخراجاً عنيفاً، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه من تلك الآلات شيء، وحصل على مقت رب الدار، وافتضاحه عنده، وبين مماليكه وحشمه وخدمه.

قال ابن مسعود : كل أحد في هذه الدنيا ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة[1].

كفاه الله

قال أبو عبد الله:

من اشتغل بالله عن نفسه، كفاه الله مؤونة نفسه.

ومن اشتغل بالله عن الناس، كفاه الله مؤونة الناس.

ومن اشتغل بنفسه عن الله، وكله الله إلى نفسه.

ومن اشتغل بالناس عن الله، وكله الله إليهم[2].

---

(١) عدة الصابرين، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) الفوائد، ص١٩٧.

هجرتان

قال أبو عبد الله:

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت:

هجرة إلى الله عز وجل بالتوحيد، والإخلاص والإنابة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة.

وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره[1].

الظلمات ثلاث

قال أبو عبد الله:

الظلمات ثلاث، هي:

- ظلمة النفس.

- وظلمة الطبع.

- وظلمة الهوى.

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ١٢.

فمن لم تولد روحه وقلبه، ويخرج من مشيمة نفسه، ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته، فهو كالجنين في بطن أمه، الذي لم ير الدنيا وما فيها.

فهكذا هذا الذي ـ بعدُ ـ في مشيمة النفس.

فلا بد من الولادة مرتين، كما قال المسيح للحواريين: إنكم لن تلجوا ملكوت السماوات حتى تولدوا مرتين[١].

علامات السعادة

قال أبو عبد الله:

من علامات السعادة والفلاح:

ـ أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته.

ـ وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره.

ـ وكلما زيد في عمره، نقص من حرصه.

ـ وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه وبذله.

ـ وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس، وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص٦٧.

وعلامات الشقاوة أنه:

- كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه.

- وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس، وحسن ظنه بنفسه.

- وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه.

وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان، يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام[1].

التعرف على هدي النبي ﷺ

قال أبو عبد الله:

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها:

أن يعرف من هديه، وسيرته، وشأنه، ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه.

والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم.

---

(١) الفوائد، ص٢٧٧.

والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1].

الصدق

قال أبو عبد الله:

الصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة.

فبذلك يكون العبد من الذين جاؤوا بالصدق[2].

دعوى الجاهلية

قال أبو عبد الله:

دعوى الجاهلية كامنة في النفوس.

---

(١) زاد المعاد، ١/ ٦٩.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٧٠.

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان، وطعم الصدق واليقين، حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه[1].

لحظات معدودة

قال أبو عبد الله:

العجب كل العجب، من غفلةِ مَنْ لحظاته معدودة عليه، وكل نَفَس من أنفاسه إذا ذهب لم يرجع إليه.

فمطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يُحْمَل، ويُسَار به أعظم من سير البريد، ولا يدري إلى أي الدارين[2] ينقل[3].

غفلة

قال أبو عبد الله:

ومن تأمل حال هذا الخلق وجدهم كلهم ـ إلا أقل القليل ـ ممن غفلت قلوبهم عن ذكر الله تعالى، واتبعوا أهواءهم، وصارت أمورهم ومصالحهم فرطاً.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٧٠.
(٢) أي الجنة والنار.
(٣) مقدمة كتاب حادي الأرواح.

فرطوا فيما ينفعهم، ويعود بصلاحهم، واشتغلوا بما لا ينفعهم، بل يعود بضررهم عاجلاً وآجلا[1].

محاسبة النفس

قال أبو عبد الله:

إذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2] فحقيق به أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب[3].

معرفة الحق

قال أبو عبد الله:

كمال الإنسان مداره على أصلين.

- معرفة الحق من الباطل.

- وإيثار الحق على الباطل.

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، تحقيق عبد الله المديفر. ص٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

(٣) إغاثة اللهفان، ١/١٣٨.

وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين[1].

آفتان في اللسان

قال أبو عبد الله:

في اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما، لم يخلص من الأخرى:

آفة الكلام.

وآفة السكوت.

وقد تكون كل منهما أعظم إثماً من الأخرى في وقتها.

فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله.

والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله.

وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

وأهل الوسط، أهل الصراط المستقيم، كفوا

(١) الجواب الكافي ص١٤٦.

ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة[1].

القرب والبعد من الله

قال أبو عبدالله:

القلب كلما كان أبعد من الله، كانت الآفات إليه أسرع، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات.

والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض:

فالغفلة تبعد العبد عن الله.

وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة.

وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية.

وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله[2].

طريق الاستقامة سهل ميسور

قال أبو عبد الله:

عمرك: هو وقتك الحاضر، بين ما مضى، وما يستقبل.

---

(١) الجواب الكافي ص٢٣٦.

(٢) الجواب الكافي ص١٣١.

فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب، إنما هو عمل القلب.

وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة.

فما مضى تصلحه بالتوبة.

وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية.

وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب.

ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين:

- فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك.
- وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده، نجوت وفزت.

وحفظه أشق من أصلاح ما قبله وما بعده.

وفي هذا تفاوت الناس[1].

متى يستجاب الدعاء

قال أبو عبد الله:

---

(١) الفوائد، ص٢١٣.

الأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدِّه فقط.

- فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة فيه.

- والساعد ساعداً قوياً.

- والمانع مفقوداً.

حصلت به النكاية بالعدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإن كان [الدعاء] في نفسه غير صالح.

أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء.

أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة.

لم يحصل الأثر[1].

دمعة

قال أبو عبد الله:

لله ملك السماوات والأرض.

واستقرض منك حبة فبخلت بها.

---

(١) الجواب الكافي، ص٣٦.

وخلق سبعة أبحر.

وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها[1].

طالب ومطلوب

قال أبو عبد الله:

سافرت في طلب الدنيا، وهي عنك زائلة.

وقعدت عن السفر إلى الآخرة، وهي إليك راحلة[2].

استعاذة من قرينين

قال أبو عبد الله:

كان ﷺ يقول في دعائه:

(اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين[3] وغلبة

---

(١) الفوائد، ص١٢٥.

(٢) الفوائد، ص١٢٢.

(٣) ضلع الدين: الضلع: الاعوجاج، والمراد به: ثقل الدين وشدته.

الرجال[1])[2].

فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين قرينان:

فالهم والحزن قرينان

وهما الألم الوارد على القلب.

فإن كان على ما مضى، فهو الحزن.

وإن كان على ما يستقبل، فهو الهم.

فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم.

والعجز والكسل قرينان

فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه:

إن كان من عدم القدرة، فهو العجز.

وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان.

فإن الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر،

---

(١) غلبة الرجال: أي شدة تسلطهم، كاستيلاء الرعاع هرجاً ومرجاً.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٩٣).

ويجلب النعم ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق.

فالجبن ترك الإحسان بالبدن.

والبخل ترك الإحسان بالمال.

وغلبة الدِّين وقهر الرجال قرينان[1].

المنة لله وحده

قال أبو عبد الله:

المنة لله وحده في أن جعل عبده قائماً بطاعته.

وهذا من أعظم نعمه عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[2].

وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وفيه من الفوائد: أنه يحول بين القلب، وبين العجب بالعمل[3].

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص٣٩٥.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٣) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص٤١.

اشتراك وتفاوت

قال أبو عبد الله:

المسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إلٰه إلا الله.

وتفاوتهم في معرفتهم بمضمون هذه الشهادة، وقيامهم بها ظاهراً وباطناً، أمر لا يحصيه إلا الله عز وجل[1].

كيف يَسْلَم؟!

قال أبو عبد الله:

كيف يسلم:

ـ من له زوجة لا ترحمه.

ـ وولد لا يعذره.

ـ وجار لا يأمنه.

ـ وصاحب لا ينصحه.

ـ وشريك لا ينصفه.

---

(١) تقريب طريق الهجرتين ص٥٢.

- وعدو لا ينام عن معاداته.

- ونفس أمارة بالسوء.

- ودنيا متزينة.

- وهوىً مردٍ.

- وشهوة غالبة له.

- وغضب قاهر.

- وشيطان مزين.

- وضعف مستولٍ عليه.

- فإن تولاه الله، انقهرت هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه، فكانت الهلكة[1].

طريق المعرفة

قال أبو عبد الله:

يدعو الرب تعالى عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

---

(١) الفوائد، ص٨٧، ٨٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

والثاني: التفكر في آياته وتدبرها.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾[2].

فتلك: آياته المشهودة.

وهذه: آياته المسموعة المعقولة[3].

انكسار المعصية

قال أبو عبد الله:

لولا تقدير الذنب، هلك ابن آدم من العجب.

وقال:

ذنب يذلُّ به، أحب إليه من طاعة يدلُّ بها عليه.

وقال:

شمعة النصر، إنما تنزل من شمعدان الانكسار[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٣) الفوائد، ص٤١.

(٤) الفوائد ص١٢٤، وهذه المواعظ مستقاة من قول ابن عطاء الله الإسكندري: «معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً».

تعجب!!

قال أبو عبد الله:

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك.

ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه.

حتى يُرى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول[1].

مراتب التقوى

قال أبو عبد الله:

التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

---

(١) الجواب الكافي، ص٢٣٢.

الثانية: حميتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى: تعطي العبد حياته.

والثانية: تفيد صحته وقوته.

والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته[١].

العِبرة

قال أبو عبد الله:

العبرة ثمرة البصيرة.

فإذا تبصر [العبد] اعتبر.

ومن عدم العبرة، فكأنه لا بصيرة له[٢].

زواج يولد كل شر

قال أبو عبد الله:

الغفلة عن الله والدار الآخرة، متى تزوَّجتْ باتباع الهوى، تولد بينهما كل شر.

---

(١) الفوائد، ص٦٥، ٩٩.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، ص٢٢.

وكثيراً ما يقترن أحدهما بالآخر.

ومن تأمل فساد أحوال العالم عموماً وخصوصاً، وجده ناشئاً عن هذين الأصلين:

- فالغفلة تحول بين العبد وبين تصور الحق ومعرفته والعلم به، فيكون من الضالين.

- واتباع الهوى، يصدّه عن قصد الحق وإرادته واتباعه، فيكون من المغضوب عليهم[1].

مادة كل فساد

قال أبو عبد الله:

اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد.

فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصداً.

وطول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها[2].

في دائرة الخير

قال أبو عبد الله:

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، ص٧.

(٢) الفوائد، ص١٨٤.

إذا أراد الله بعبد خيراً:

جعله معترفاً بذنبه، ممسكاً عن ذنب غيره.

جواداً بما عنده، زاهداً فيما عند غيره.

محتملاً لأذى غيره[1].

لو كنتُ فعلت؟!

قال أبو عبد الله:

قولك: لو كنتُ فعلت كذا وكذا، لم يَفُتْني ما فاتني، أو: لم أقع فيما وقعت فيه.

كلام لا يجدي عليك فائدة ألبتة.

فإنك غير مستقبل لما استدبرت من أمرك، وغير مستقيل عَثْرَتَه بـ«لو»، وفي ضمن «لو» ادعاء أن الأمر لو كان كما قدرته في نفسك لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه، فإن ما وقع مما تتمنى خلافه إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته.

فإذا قلت: «لو أني فعلت كذا لكان خلاف ما وقع». فهو محال، إذ خلاف المقدر المقضي محال.

---

(١) الفوائد، ص١٨٥.

فقد تضمن كلامك، كذباً، وجهلاً، ومحالاً.

وإن سلمت من التكذيب بالقدر، لم تسلم من معارضته بقولك: لو أني فعلت كذا، لدفعت ما قدر الله عليَّ![1].

آثار الهم والحزن

قال أبو عبد الله:

الهم والحزن لا ينفعان العبد ألبتة، بل مضرتهما أكثر من منفعتهما.

فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب.

ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه.

ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى الوراء، أو يحجبانه عن العَلم الذي كلما رآه شمَّر إليه، وجدَّ في سيره.

فهما حمل ثقيل على ظهر السائر[2].

---

(١) زاد المعاد ٢/٣٥٧.

(٢) زاد المعاد ٢/٣٥٩.

أولويات

قال أبو عبد الله:

أفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك الأوراد، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات، المبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بَعُدَ، والجد في إيقاعها على أكمل الوجوه.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة، بالجاه أو البدن أو المال، الاشتغال بمساعدته وإغاثة اللهفان.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد والتضرع بالدعاء والذكر.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، ولا سيما التكبير والتهليل والتحميد.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف.

والأفضل في مرض أخيك المسلم أو موته، عيادته وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك.

والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه، والاشتغال به.

وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه[1].

القلب الذي لا تؤثر فيه المواعظ

قال أبو عبد الله:

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة:

---

(١) مدارج السالكين ١/٨٨، ٨٩.

الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة.

وكما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ[1].

الشيطان نوعان

قال أبو عبد الله:

ولما كان الشيطان على نوعين:

نوع يرى عياناً، وهو شيطان الإنس.

ونوع لا يرى، وهو شيطان الجن.

أمر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه، والعفو والدفع بالتي هي أحسن، ومن شياطين الجن بالاستعاذة بالله منه.

والاستعاذة في القراءة والذكر أبلغ في دفع شر شياطين الجن.

والعفو والإعراض والدفع بالإحسان أبلغ من دفع شياطين الإنس[2].

---

(١) الفوائد ص١٨٢.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٤٦٢.

طغيان الألفاظ

قال أبو عبد الله:

احذر كل الحذر من طغيان «أنا» و«لي» و«عندي».

فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها: إبليس، وفرعون، وقارون.

ف(أنا خير منه) لإبليس.

و(لي ملك مصر) لفرعون.

و(إنما أوتيته على علم عندي) لقارون[1].

انشراح الصدر بترك الفضول

قال أبو عبد الله:

[إياك] وفضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل والنوم.

فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً، وهموماً في القلب، تحصره، وتحبسه، وتضيقه، ويتعذب بها.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٤٧٥.

بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها.

فلا إله إلا الله، ما أضيق صدر من ضرب من كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله[1].

روح الصلاة

قال أبو عبد الله:

الصلاة لها ظاهر وباطن:

فظاهرها: الأفعال المشاهدة، والأقوال المسموعة.

وباطنها: الخشوع والمراقبة، وتفريغ القلب لله.

فهذا: بمنزلة الروح لها.

والأفعال: بمنزلة البدن.

فإن خلت ـ الصلاة ـ من الروح، كانت كبدن لا روح فيه[2].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٧.

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، ص٣٤.

فقر هو الغنى

قال أبو عبد الله:

لما كان الفقر إلى الله سبحانه هو عين الغنى به:

- فأفقر الناس إلى الله أغناهم به.
- وأذلهم له أعزهم.
- وأضعفهم بين يديه أقواهم.
- وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله.
- وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله.

كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه، متلازمين متناسبين[1].

غرور الأماني

قال أبو عبد الله:

يا مغروراً بالأماني:

- لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها.

---

(١) تقريب طريق الهجرتين، ص٩٣.

ـ وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها.

ـ وحجب القاتل عنها بملء كف من دم.

فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيه[1].

مداخل الشيطان

قال أبو عبد الله:

كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

ـ **أحدها**: التزيد والإسراف: فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب.

وطريق الاحتراز منه: عدم إعطاء النفس تمام مطلوبها من: غذاء، أو نوم، أو لذة، أو راحة.

فمتى أغلقت هذا الباب، حصل الأمان من دخول العدو منه.

ـ **الثانية**: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر.

---

(١) الفوائد. ص١١٥.

فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه إخراجه.

ـ **الثالثة:** تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء[1].

احذر الجانب الآخر

قال أبو عبد الله:

إذا كان الله ورسوله ﷺ في جانب، فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقّة والمحادّة، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها.

وكن في الجانب الذي فيه الله ورسوله ﷺ، وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر. وليس شيء أصعب على الإنسان من ذلك في مبادئ الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فإن صبر جاءه العون من الله تعالى[2].

---

(١) الفوائد، ص٣٣٤.

(٢) الفوائد، ص٢١١.

النعم ثلاثة

قال أبو عبد الله:

النعم ثلاثة:

- نعمة حاصلة يعلم بها العبد.

- ونعمة منتظرة يرجوها.

- ونعمة هو فيها لا يشعر بها.

فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده:

- عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية وتقيَّد بالشكر.

- ووفقه لعمل يستجلب له النعمة المنتظرة، وبصَّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه.

- وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابياً دخل على الرشيد فقال: أميرَ المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظنّ به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها

لتشكرها، فقال الرشيد: ما أحسن تقسيمه[1].

حتى لا يصبح الشر عادة

قال أبو عبد الله:

دافع الخطرة[2].

فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة.

فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها.

فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة.

فإن لم تفعل صارت فعلاً.

فإن لم تتداركه بضده صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها[3].

طريق الوصول

قال أبو عبد الله:

أقرب الوسائل إلى الله:

---

(١) الفوائد، ص٣٠٥.
(٢) أي ما يخطر بالبال.
(٣) الفوائد، ص٦٥.

ـ ملازمة السنة، والوقوف معها في الظاهر والباطن.

ـ ودوام الافتقار إلى الله.

ـ وإرادة وجهه وحده، بالأقوال والأفعال.

وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة.

وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها[1].

الهم والحزن

قال أبو عبد الله:

المكروه الوارد على القلب ـ باعتبار سببه ـ قسمان:

فإنه إما أن يكون سببه أمراً ماضياً، فهو يحدث الحزن.

وإما أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يحدث الهم.

وكلاهما من العجز:

---

(١) الفوائد، ص٢٠٠.

فإن ما مضى لا يدفع بالحزن، بل بالرضى، والحمد، والصبر، والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدر الله وما شاء فعل.

وما يستقبل لا يدفع أيضاً بالهم، بل:

- إما أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه.

- وإما أن لا يكون له حيلة في دفعه، فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، من التوحيد والتوكل، والاستسلام لله تعالى والرضى به رباً في كل شيء، ولا يرضى به رباً فيما يحب دون ما يكره[1].

غلط في التوكل

قال أبو عبد الله:

غلط في التوكل طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل، كافٍ في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله، الموصلة إلى مسبباتها فوقعوا في نوع تفريط وعجز.

---

(١) زاد المعاد ٢/٣٥٨.

والثانية: التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعاً وقدراً، وأعرضت عن جانب التوكل.

والتوكل: محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله فيها.

وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض، وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه[1].

النعمة العظمى

قال أبو عبد الله:

أفضل ما يقدِّر الله لعبده، وأجل ما يقسمه له، الهدى.

وأعظم ما يبتليه به، ويقدِّره عليه: الضلال.

وكل نعمة، دون نعمة الهدى.

وكل مصيبة، دون مصيبة الضلال[2].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٦٣.

(٢) شفاء العليل ١/ ٢٢٩.

سؤالان

قال أبو عبد الله:

لا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين:

- ماذا كنتم تعبدون؟

- وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى بتحقيق «لا إلٰه إلا الله» معرفة وإقراراً وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق: «أن محمداً رسول الله» معرفة وإقراراً وانقياداً وطاعة[1].

بداية وخاتمة

قال أبو عبد الله:

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول:

سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته.

---

(١) زاد المعاد، المقدمة.

ولذلك كان النبي ﷺ يصلي سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص[1]، وهما الجامعتان:

- لتوحيد العلم والعمل.
- وتوحيد المعرفة والإرادة.
- وتوحيد الاعتقاد والقصد[2].

في رحاب فضل الله

قال أبو عبد الله:

سبحان من نفذ حكمه في بريّته، وعدل بينهم في أقضيته، وعمَّهم برحمته، وصرَّفهم تحت مشيئته وحكمته، وأكرمهم بتوحيده ومعرفته.

وجعل:

أهلَ ذكره أهلَ مجالسته.

وأهل شكره أهل زيارته.

وأهل طاعته أهلَ كرامته.

---

(١) هما سورة الكافرون وسورة الإخلاص.

(٢) زاد المعاد ١/٣١٦.

وأهل معصيته لا يقنِّطهم من رحمته:

- إن تابوا فهو حبيبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾.

- وإن أصروا فهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليطهرهم من الدنس والآثام[1].

الربانيون وجهاد النفس

قال أبو عبد الله:

جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعَها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمُه، وإلا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل الله مِن الهُدى والبيات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجِيه مِن عذاب اللَّهِ.

---

(١) شفاء العليل. ١٠/٤٢، بتحقيق الأستاذ عمر الحفيان. مكتبة العبيكان.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله للَّه.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الرَّبَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربانياً حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمن علم وَعَمِلَ وعلَّمَ فذاكَ يُدَعى عظيماً في ملكوتِ السماوات[1].

انتهاز الفرص

قال أبو عبد الله:

إذا حضرت للرجل فُرصةُ القُربة والطاعة، فالحزمُ كُلُّ الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجزُ في تأخيرها، والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعةُ الانتقاض قلّما ثبتت، والله سُبحانه يُعاقب مَنْ فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمكنه بعد من إرادته عقوبةً له، فمن لم يَستجِبْ لله ورسوله إذا دعاه، حالَ بينه وبين قلبه وإرادته، فلا

---

(١) زاد المعاد ٣/ ١٠.

يمكنه الاستجابةُ بعد ذلك. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[1].

خدع النفوس

قال أبو عبد الله:

كيف يجتمع في قلب العبد:

تيقنه بأنه ملاقي الله.

وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره.

وأنه موقوف بين يديه، مسؤول عن كل ما عمل.

وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطّل لحقوقه.

وهو ـ مع هذا ـ يحسن الظن به.

وهل هذا إلا من خدع النفوس، وغرور الأماني[2]؟!

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٧٤ والآية من سورة الأنفال.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص٤٧.

الإحسان إلى الخلق

قال أبو عبد الله:

قد دلّ العقل والنقل والفطرة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها: على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير.

وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر.

فما استجلبت نعم الله، واستدفعت نقمه، بمثل طاعته، والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه[1].

لوازم الرجاء

قال أبو عبد الله:

ينبغي أن يعلم: أن من رجا شيئاً، استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبته ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

---

(١) المصدر قبله ص٣٩.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني. والرجاء شيء والأماني شيء آخر[1].

إحكام الأساس

قال أبو عبد الله:

من أراد علوَّ بنيانه، فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه. فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه.

فالأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان.

ومتى كان الأساس وثيقاً، حمل البنيان واعتُليَ عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت. وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه.

والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث أن يسقط.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ

---

(١) المصدر قبله ص٧٦.

مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1][2].

إذا جاء وقت العجين

قال أبو عبد الله:

خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة، التي لا تسكن، ولا بدَّ لها من شيء تطحنه.

فإن وُضِع فيها حب طحنته، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته.

فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس، هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى.

ولا تبقى تلك الرحى معطلة أبداً، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها.

فمن الناس من تطحن رحاه حباً، يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وغيره.

وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً، ونحو ذلك.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

(٢) الفوائد، ص٢٧٩.

فإذا جاء وقت العجن والخَبز، تبيَّن له حقيقة طحينه[1].

تلاوة القرآن

قال أبو عبد الله:

التلاوة الحقيقية: هي تلاوة المعنى واتباعه:

تصديقاً بخبره

وائتماراً بأمره

وانتهاء عن نهيه

وائتماماً به، حيث ما قادك انقدت معه.

فتلاوة القرآن، تتناول: تلاوة لفظه ومعناه.

وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن، الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً[2].

---

(١) الفوائد، ص٣٠٨.

(٢) مفتاح دار السعاد، دار ابن عفان، ١/ ٢٠٢ قال ابن القيم رحمه الله: وحقيقة اللفظ (التلاوة) إنما هي الاتباع، يقال: أتل أثر فلان، وتلوث أثره، بمعنى تبعته خلفه ومنه قوله تعالى ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس: ٢].

سلطان الكلمة

قال أبو عبد الله:

سلطان العلم، أعظم من سلطان اليد. ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد.

فإن الحجة تنقاد لها القلوب.

وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن.

فالحجة تأسر القلب وتقوده، وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت سلطانها.

فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل قاهرة له[1].

سبيل الخلاص

قال أبو عبد الله:

الإخلاص هو سبيل الخلاص.

والإسلام مركب السلامة.

---

(١) المصدر قبله ١/ ٢٤٤.

والإيمان خاتم الأمان[1].

الخوف من سوء الخاتمة

قال أبو عبد الله:

إذا نظرت إلى كثير من المحتضرين، وجدتهم يُحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله:

«واعلم أن لسوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ أسباباً، ولها طرقاً وأبواباً، أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها، والحرص عليها، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل.

وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية.. فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا تنجح فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك..

---

(١) المصدر قبله ١/ ٢٧٧.

قال عبد الحق رحمه الله: قيل لرجل ـ أعرفه ـ قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول:

أين الطريق إلى حمام منجاب؟

قال: وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب. فدخلت ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره، وعلمت أنه خدعها، أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت ـ خدعة منها له وتخيلاً، لتتخلص مما أوقعها فيه، وخوفاً من فعل الفاحشة ـ: يصلح أن تكون معنا ما يطيب به عيشنا، وتقرَّ به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت.. فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الأزقة ويقول:

يا رب قائلة يوماً وقد تعبت

أين الطريق إلى حمام منجاب

ولم يزل كذلك، حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا».

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له:

أكل هذا خوفاً من الذنوب؟

فأخذ تبنة من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه، وإنما أبكي خوفاً من سوء الخاتمة.

وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى[1].

العلم إمام العمل

قال أبو عبد الله:

العلم إمام العمل، وقائد له.

والعمل تابع له، ومؤتم به.

فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به، فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرة عليه.

---

(١) الجواب الكافي ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

كما قال بعض السلف: من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

فالعلم هو الميزان، وهو المِحَك[1].

التفاوت بين الناس

قال أبو عبد الله:

إن الله سبحانه وتعالى فاوتَ بين النوع الإنساني أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين.

فلا يعرف اثنان من نوع واحد، بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرِّهم.

والله سبحانه خلق الملائكة عقولاً بلا شهوات.

وخلق الحيوانات شهوات بلا عقول.

وخلق الإنسان مركباً من عقل وشهوة، فمن غلب عقله شهوته، كان خيراً من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله كان شراً من الحيوانات.

وفاوت سبحانه بينهم في العلم:

فجعل عالمهم معلِّمَ الملائكة، كما قال تعالى:

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٠٢.

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾[1] وتلك مرتبة لا مرتبة فوقها.

وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به، ولا يصلح له، كما قال الشيطان لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾[2].

فلله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين:

أحدهما: تسجد له الملائكة ويعلمها مما الله علمه.

والآخر: لا يرضى به الشيطان ولياً[3].

إهمال الآباء

قال أبو عبد الله:

وكم ممن أشقى ولده، وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وتركِ تأديبه، وإعانته على شهواته.

ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه.

وأنه يرحمه وقد ظلمه.

ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٣.
(٢) سورة الحشر: الآية ١٦.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/٣٥٢ ـ ٣٥٣.

وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد، رأيت عامته من قبل الآباء[1].

داء الجهل

قال أبو عبد الله:

جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء.

ففي حديث جابر بن عبد الله قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجل منا حجر، فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك، فقال: (قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال)[2][3].

عندما يستجاب الدعاء

قال أبو عبد الله:

---

(١) تحفة المودود في أحكام المولود ص١٤٦.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦).
(٣) الجواب الكافي ص٢١.

كثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء: ضرورة صاحبه، وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته، أو صادف الدعاء وقت إجابة، ونحو ذلك، فأجيبت دعوته.

فيظن الظان: أن السر في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. فإنه يكون بذلك غالطاً.

ومن هذا: قد يتفق من يدعو دعاء باضطرار عند قبر فيجاب له، فيظن الجاهل أن السر في القبر، ولم يعلم أن السر في الاضطرار، وصدق اللجأ إلى الله[1].

جوامع الخير

قال أبو عبد الله:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم.

---

(١) الجواب الكافي ص٣٦.

وبيان ذلك: أن المراتب أربع، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلُّمه، والعمل به، وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربع في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر: أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به. فهذه مرتبة.

وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى.

وتواصوا بالحق، وصى به بعضهم بعضاً، تعليماً وإرشاداً، فهذه مرتبة ثالثة.

وتواصوا بالصبر، صبروا على الحق، ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال: فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكملاً لغيره.

فهذه السورة على اختصارها، هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره[1].

الافتقار إلى العلم

قال أبو عبد الله:

كل ما سوى الله مفتقر إلى العلم، لا قوام له بدونه.

فما قامت السماوات والأرض وما بينهما إلا بالعلم.

ولا بعث الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم.

ولا عُبِدَ اللّهُ وحده وحمد وأثني عليه ومجِّدَ إلا بالعلم.

ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم.

ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم[2].

تضييع الأمر من الجهل

قال أبو عبد الله:

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٢٣٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣١٤.

كثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيّعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب، فهو كالمعاند.

وقال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه، من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو ذلك[1].

يظنون بالله غير الحق

قال أبو عبد الله:

أكثر الخلق ـ بل كلهم إلا من شاء الله ـ يظنون بالله غير الحق ظن السوء.

فإن غالب ابن آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان

---

(١) الجواب الكافي ص٥٠.

حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك.

وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به.

ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كمُونَ النار في الزناد.

فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا كذا، فمستقل ومستكثر.

وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة

وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فليعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله وليستغفره كل وقت[1].

معرفة إبليس

قال أبو عبد الله:

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٣٥.

إن الله سبحانه بحكمته سلط على العبد عدواً عالماً بطرق هلاكه، لا يفتر عنه، ولا بدَّ له من واحدة من ست ينالها منه:

إحداها - وهي غاية مراده منه - أن يحول بينه وبين العلم والإيمان، فيلقيه في الكفر، فإذا ظفر بذلك، فرغ منه واستراح.

فإن فاتته هذه - وهدي للإسلام - حرص على تلو الكفر، وهي البدعة، وهي أحب إليه من المعصية، فإن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها، لأن صاحبها يرى أنه على هدى.

فإذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمرائه.

فإن أعجزته، ألقاه في الثالثة، وهي الكبائر.

فإن أعجزته، ألقاه في اللمم، وهي الرابعة، وهي الصغائر.

فإن أعجزته، شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، وهي الخامسة.

فإن أعجزه ذلك، صار إلى السادسة، وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه، ويرمونه بالعظائم ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله.

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور، ولا بعدوه، ولا بما يحصنه منه[1]؟

تدبر آيات القرآن

قال أبو عبد الله:

لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر.

وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح.

والتفكر في القرآن نوعان:

١ ـ تفكرٌ فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه.

٢ ـ وتفكرٌ في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه.

فالأول: تفكر في الدليل القرآني، وهو تفكر في آياته المسموعة.

والثاني: تفكر في الدليل العياني، وهو تفكر في آياته المشهودة.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٧٢.

ولهذا أنزل الله القرآن ليُتَدبَّرَ ويُتفكَّرَ فيه، ويعملَ به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه.

قال الحسن البصري: أنزل القرآن ليُعملَ به، فاتخذوا تلاوته عملا[1].

الإسلام وراء ذلك

قال أبو عبد الله:

الشهادة لرسول الله ﷺ بأنه نبي لا تدخل الإنسان في الإسلام، ما لم يلتزم طاعته ومتابعته.

فشهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق، وأن دينه من خير أديان البرية ديناً لم تدخله في الإسلام.

ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة، من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة، وأنه صادق، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام وراء ذلك.

وأنه ليس هو المعرفة فقط.

ولا المعرفة والإقرار فقط.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٥٤، ٥٥٥.

بل المعرفة والإقرار والانقياد، والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً[1].

التوبة طريق النجاة

قال أبو عبد الله:

قسم الله تعالى خلقه إلى قسمين لا ثالث لهما:

- تائبين.

- وظالمين.

فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

وكذلك جعلهم قسمين: معذبين وتائبين، فمن لم يتب فهو معذب ولا بُدَّ.

قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[3].

وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، ولا يستثنى من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها.

---

(١) زاد المعاد ٣/٦٣٨، ٦٣٩.
(٢) سورة الحجرات: الآية ١١.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٧٣.

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وعدد سبحانه نعمه على خير خلقه، وأكرمهم عليه وأطوعهم له فقال:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[2][3].

من لا يعرف الجاهلية

قال أبو عبد الله:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

ولهذا كان الصحابة أعرفَ الأمة بالإسلام وتفاصيله، وأبوابه وطرقه، وأشد الناس رغبة فيه، ومحبة له، وجهاداً لأعدائه، وتحذيراً من خلافه، لكمال علمهم بضده.

---

(١) سورة النور: الآية ٣١.
(٢) سورة التوبة، الآية ١١٧.
(٣) شفاء العليل، ١/ ٣٥٠، طبعة العبيكان.

فجاءهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه، فازدادوا له معرفة وحباً، وفيه جهاداً بمعرفتهم بضده.

وذلك بمنزلة من كان في حصر شديد، وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة، فقيَّض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة، وأمن وعافية، وغنى وبهجة، فإنه يزداد سروره بحسب معرفته بما كان فيه.

وليس هذا كمن ولد في الأمن والعافية.. فإنه لم يشعر بغيره. وربما قيضت له أسباب تخرجه عن ذلك إلى ضده وهو لا يشعر.

وما أكثر هذا الضرب من الناس.

فإذا عرف الضدين وعرف أسباب الهلاك، كان أحرى أن تدوم عليه النعمة.

وهذه حال المؤمن، يكون فطناً صادقاً، أعرف الناس بالشر، وأبعدهم منه[1].

تمام العبودية

قال أبو عبد الله:

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٨٨.

تمام العبودية، هو بتكميل مقام الذل والانقياد.

وأكمل الخلق عبودية، أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة.

والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل:

فهو ذليل لعزه.

وذليل لقهره.

وذليل لربوبيته فيه وتصرفه.

وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه، فإن من أحسن إليك فقد استعبدك[1].

(والحمد لله تملأ الميزان)[2]

قال أبو عبد الله:

والله سبحانه افتتح الخلق بالحمد، وختم أمر هذا العالم بالحمد.

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٦٧.

(٢) فقرة من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٢٣).

فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1].

وقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وأنزل كتابه بالحمد.

وشرع دينه بالحمد.

وأوجب ثوابه وعقابه بالحمد.

فحمده من لوازم ذاته، إذ يستحيل أن يكون إلا محموداً.

فالحمد سبب الخلق وغايته.

وحمده واسع لما وسعه علمه ورحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً.

ولهذا ملأ حمده سماواته وأرضه وما بينهما، وما شاء من شيء بعد، مما خلقه ويخلقه هناك بعد هذا الخلق، فحمده ملأ ذلك كله.

وحمده تعالى أنواع:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٥.

حمد على ربوبيته، وحمد على تفرده بها.

وحمد على ألوهيته وتفرده بها.

وحمد على نعمته.

وحمد على منته.

وحمد على حكمته.

وحمد على عدله في خلقه.

وحمد على غناه عن إيجاد الولد والشريك والولي من الذل.

وحمد على كماله الذي لا يليق بغيره.

فهو محمود على كل حال، وفي كل آن ونَفَس، وعلى كل ما فعل، وكل ما شرع، وعلى كل ما هو متصف به، وعلى كل ما هو منزَّه عنه، وعلى كل ما في الوجود من خير وشر، ولذة وألم، وعافية وبلاء.

فكما أن الملك كله له، والقدرة كلها له، والعزة كلها له، والعلم كله له، والجمال كله له، فالحمد كله له.

كما في الدعاء المأثور: (اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر

كله وأنت أهل أن تحمد[1])[2].

علامة السعادة

قال أبو عبد الله:

علامة السعادة: أن تكون حسنات العبد خلف ظهره، وسيئاته نصب عينيه.

وعلامة الشقاوة: أن يجعل حسناته نصب عينيه، وسيئاته خلف ظهره[3].

بين السجدتين

قال أبو عبد الله:

ينبغي للمسلم أن يستغفر لأخيه المسلم، فيصير هجيراه[4]: ربِّ اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات.

وسمعت شيخنا يذكره، وذكر فيه فضلاً عظيماً.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٦).

(٢) شفاء العليل ٢/ ٦٨٦.

(٣) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٩٥.

(٤) أي دأبه وعادته.

وسمعته يقول[1]: إنَّ جعلَه بين السجدتين جائز.

فإذا شهد العبد أنَّ إخوانه محتاجون إلى ما هو محتاج إليه، لم يمتنع من مساعدتهم بمغفرة الله وفضله[2].

السكر بحب الدنيا

قال أبو عبد الله:

كل خطيئة في العالم، أصلها حب الدنيا.

ولا تنسَ خطيئة الأبوين قديماً، فإنما كان سببها حب الخلود في الدنيا.

ولا تنسَ ذنب إبليس، وسببه حب الرياَسة، التي محبتها شر من محبة الدنيا.

وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما، وأبو جهل وقومه واليهود.

فحب الدنيا والرياسة، هو الذي عمر النار بأهلها.

والزهد في الدنيا والرياسة، هو الذي عمر الجنة بأهلها.

---

(١) هو الإمام ابن تيمية.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٩٨.

والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد، ولو انشقَّ عنه غطاؤه في الدنيا، لعلمَ ما كان فيه من السكر، وأنه أشد من سكر الخمر[1].

طهارتان

قال أبو عبد الله:

قوله تعالى: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

الطهر طهران:

طهر بالماء من الأحداث والنجاسات.

وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي. وهذا أصل لطهور الماء، وطهور الماء لا ينفع بدونه، بل هو مكمل له، فكان أولى بالتقديم، لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث[2].

فساد العلماء والعباد

قال أبو عبد الله:

---

(١) عدة الصابرين، ص٢٦٦.

(٢) بدائع الفوائد، ١/٦٨.

كان السلف يقولون:

من فسد من علمائنا، ففيه شَبَه من اليهود.

ومن فسد من عبادنا، ففيه شبه من النصارى.

وهذا كما قالوا.

فإن من فسد من العلماء، فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه، وكتمان ما أنزل الله..، واللي والتحريف والتحيل على المحارم، وتلبيس الحق بالباطل، فهذا شبهه باليهود ظاهر.

وأما من فسد من العبّاد، فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسول الله ﷺ.

وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية، وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد، فشبهه بالنصارى ظاهر.

فعلى المسلم أن يَبْعُد من هذين الشبهين غاية البعد[1].

أولاد العالم

قال أبو عبد الله:

---

(١) بدائع الفوائد، ٢/ ٣٢.

ليس العالم شخصاً واحداً، العالم عَالَم. تصانيف العالم أولاده المخلدون دون أولاده[1].

لنهدينهم سبلنا

قال أبو عبد الله:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[2].

علق سبحانه الهداية بالجهاد.

فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا.

فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته.

ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد:

والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص.

---

(١) الفوائد ص٣٧٤.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٩.

ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر؛ إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً. فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه[1].

اجتناب الشبهات

قال أبو عبد الله:

الشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبه فيه.

وقال لي شيخ الإسلام[2] رضي الله عنه ـ وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد ـ:

«لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشرَّبَها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصْمَتَةِ تمر الشبهات بظاهرها، ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشربتَ قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات».

---

(١) الفوائد، ص١٠٩.

(٢) هو الإمام ابن تيمية رحمه الله.

فما أعلم أني انتفعت بوصيته في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك[1].

الصلاة

قال أبو عبد الله:

فتّش على قلبك الضائع قبل الشروع. فحضور القلب أول منزل من منازل الصلاة.

فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى.

فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة، فكان أول قرى ضيف اليقظة كشف الحجاب لعين القلب.

فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلى البادية بعدُ.



لو أحببت المعبود لحضر قلبك في عبادته.

قيل لعامر بن قيس: أما تسهو في صلاتك؟

قال: أوَ حديث أحب إلي من القرآن حتى أشتغل به؟!

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، حتى انهدمت ناحية من نواحي المسجد، ففزع لها أهل السوق، فما التفت.



تقف في صلاتك بجسدك، وقد وجهت وجهك إلى القبلة، ووجهت قلبك إلى قطر آخر.

ويحك ما تصلح هذه الصلاة مهراً للجنة، فكيف تصلح ثمناً للمحبة[1]؟!



معاملة النفس

قال أبو عبد الله:

للنفس حظ، وعليها حق. «فلا تميلوا كل الميل، وزنوا بالقسطاس المستقيم».

وإن رأيتم منها فتوراً، فاضربوها بسوط «الهجر في المضاجع» «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلاً».

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣٣.

ارفقوا بمطايا الأبدان، فقد ألفت الترف «ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن».

إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تحملوا على النفوس فوق الطاقة إلى أن تتمكن المحبة، فلها حينئذ حكمها[1].

دابة لا تعمل بعلفها

قال أبو عبد الله:

شكرك لا يساوي قدر قوتك، لا كانت دابة لا تعمل بعلفها.

متى رأيت..

قال أبو عبد الله:

متى رأيت العقل يؤثر الفاني على الباقي، فاعلم أنه قد مسخ.

---

(١) بدائع الفوائد ٢١٦/٣، وهذا نمط من المواعظ اعتمد فيه المؤلف ـ رحمه الله ـ أسلوب التضمين، وستأتي مواعظ أخرى كذلك.

ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله، والاستعداد للقائه، وحلَّ فيه حب المخلوق، والرضى بالحياة الدنيا، والطمأنينة بها، فاعلم أنه قد خسف به.

ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى، فاعلم أن قحطها من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي.

ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنك لا تصلح لشيء[1].

الأعداء ثلاثة

قال أبو عبد الله:

الدنيا والشيطان عدوان خارجان عنك، والنفس عدو بين جنبيك. ومن سنة الجهاد: قاتلوا الذين يلونكم[2].

---

(١) بدائع الفوائد، ٣/ ٢٢٤ وكذا ما قبلها.

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٥.

تحذير من الظلم

قال أبو عبد الله:

سبحان الله؟

كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة.

واحترقت كبد يتيم.

وجرت دمعة مسكين.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾[1] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾[2].

ما ابيضَّ لون رغيفهم حتى اسودَّ لون ضعيفهم.

وما سمنت أجسامهم، حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه.

لا تحقر دعاء المظلوم، فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك.

ويحك! نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت.

قوسه، قلبه المقروح، ووتره: سواد الليل، وأستاذه صاحب «لأنصرنك ولو بعد حين».

---

(١) سورة المرسلات، الآية ٤٦.

(٢) سورة صَ، الآية ٨٨.

وقد رأيت ولكن لست تعتبر[1]!!

كان التصوف

قال أبو عبد الله:

كان التصوف والفقر في مواطن القلوب.

فصار في ظواهر الثياب.

كان خرقة، فصار حرفة.

غيِّر زيك أيها المرائي، فإنه يصيح بك خذوني.

لو أبصرت طلائع الصديقين في أوائل الركب، أو سمعت استغاثة المحبين في وسط الركب، أو شاهدت ساقة المستغفرين في آخر الركب، لعلمت أنك قد انقطعت تحت شجرة أم غيلان[2].

واحسرتا لمنقطع دون الركب يعد المنازل[3].

الإخلاص في طلب العلم

قال أبو عبد الله:

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٢٤٢.

(٢) أم غيلان: شجر السمر.

(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣٦.

يا طالبي العلم! قد كتبتم ودرستم.

فلو طلبكم العلم في بيت العمل فلستم[1]..

وإن ناقشكم على الإخلاص أفلستم.

شجرة الإخلاص أصلها ثابت، لا يضرها زعازع ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وأما شجرة الدباء فإنها تجتث عند نسمة «من كان يعبد شيئاً فليتبعه».

رياء المرائين صير «مسجد الضرار» مزبلَة وخربة، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث «رب أشعث أغبر».

قلبُ من ترائيه بيد من أعرضت عنه، يصرفه عنك إلى غيرك، فلا على ثواب المخلصين حصلت، ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت، وفات الأجر والمدح، فلا هذا، ولا هذا[2].

---

(١) أي لم يجدكم، فلستم هناك.

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣٧.

تدرج الأحكام

قال أبو عبد الله:

كان الإسلام في بدايته كالنطفة، فاقتنع بكلمة التوحيد.

فلما نفخ فيه الروح، احتاج إلى الغذاء، ففرضت الصلاة.

فلما تحرك، وجبت الهجرة.

فلما اشتد، وجبت الزكاة.

فلما قربت الولادة، لزم الحج.

فلما ظهر طفلاً، حبى بلفظ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾

فلما خاف من الزلل والعقاب، جاءت بشارة ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾.

فلما ترعرع قال المؤدب: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

فلما بلغ أشدّه واستوى، جاء ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣٨.

لا تكن الرابعة

قال أبو عبد الله:

إذا لم تكن من أنصار الرسول ﷺ فتنازل الحرب، فكن من حراس الخيام.

فإن لم تفعل، فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين.

ولا تكن الرابعة فتهلك[١].

أمام الباب المسدود

قال أبو عبد الله:

إذا رأيت الباب مسدوداً في وجهك، فاقنع بالوقوف خارج الدار، مستقبل الباب، سائلاً مستعطياً، فعسى..

ولكن لا تولِّ ظهرك وتقول: ما حيلتي وقد سد الباب دوني[٢]!!

تأمل العواقب

قال أبو عبد الله:

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٦.

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٦.

الحيوان البهيم يتأمل العواقب، وأنت لا ترى إلا الحاضر.

ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتى يقوى البرد، ولا بمؤونة الصيف حتى يقوى الحر.

والذر[1] يدخر الزاد من الصيف لأيام الشتاء.

وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت، أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع.

أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر؟! فهلا بعثت فراش ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[2].

التخلف عن الرسول

قال أبو عبد الله:

تخلف الثلاثة عن الرسول ﷺ في غزوة واحدة، فجرى لهم ما سمعت، فكيف بمن عمره في التخلف عنه[3].

---

(١) الذر: صغار النمل.
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٥.
(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٨.

مواعظ قصيرة

قال أبو عبد الله:

الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي.



لو رأيت أهل القبور في وثاق الأسر، فلا يستطيعون الحركة إلى نجاة، وحيل بينهم وبين ما يشتهون.



لو احتميت ساعة، لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة.



الدنيا تفوِّق سهامها نحو بنيها، وتقول: خذوا حذركم، فلهذا دم قتلاها هدر.



أرسلت قلبك مع كل مطلوب من الهوى، ثم تبعث وراءه وقت الصلاة؟!

فربما لا يلقاه الرسول، فتصلي بلا قلب.



ادخل حبس التقوى باختيارك أياماً، ليحصل لك الإطلاق على الدوام، ولا تؤثر إطلاق نفسك فيما تحب فإنه يؤثر حبس الأبد.



منام المنى أضغاث، ورائد الآمال كذوب، ومرتع الشهوات وخيم.



العمر ثوب غير مكفوف، وكل نفس خيط يُسَلّ منه.



أنت أجير، وعليك عمل، فأخر ثياب الراحة إلى انقضاء العمل.



هذا الصّدّيق يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد.

وعمر يناشد حذيفة: هل أنا منهم؟

والمخلط على بساط الأمن.



أقرارك بالإفلاس عين الغنى، واعترافك بالخطأ نفس الإصابة[1].



---

(١) هذه المواعظ من بدائع الفوائد ٣/ ٢١٦ ـ ٢٤٢.

أعظم الربح في الدنيا: أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها.



المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه.



من عظم وقار الله في قلبه أن يعصيه، وقَّره الله في قلوب الخلق أن يذلوه.



لو خرج عقلك من سلطان هواك، عادت الدولة له.



اشترِ نفسك، فالسوق قائمة والثمن موجود.



ما مضى من الدنيا أحلام، وما بقي منها أماني، والوقت ضائع بينهما.



إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور.



إذا رأيت الرجل يشتري الخسيس بالنفيس، ويبيع العظيم بالحقير، فاعلم بأنه سفيه.

لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب.



ليس العجب من قوله: «يحبونه» إنما العجب من قوله: «يحبهم».



من استطال الطريق ضعف مشيه.



من لاح له كمال الآخرة، هان عليه فراق الدنيا.



سلعة «وإني لغفار..» لا تبذل إلا بثمن «لمن تاب»[1].

---

(١) هذه المواعظ من كتاب الفوائد، من أماكن متعددة منها (ص٦٥، ٧٧، ١٢٢، ١٢٨، ٣٥٨، ٣٨٣).

المحتوى